دور الكتب والمكتبات في نشر الحضارة الإسلامية في الأندلس

عصمت ناز*

Abstract

Muslim Rule in Spain was a significant and a golden period not in the history of Islam but in world as well. Spain was the glory of Muslims, seat of learning, place of knowledge in all fields of life from conquest till downfall. All this essence of knowledge was due to the personal interests of kings and a large number of Libraries around the country. In that time this country was indeed the only developed country in the whole medieval Europe.

In this article I tried my best to explain the great contribution of Muslims in education, literature, art and design, architecture, agriculture, fashion and in living style. And they spread all this with the help of libraries so I emphasize on the roll of books and libraries and throw light on the importance of books and libraries to improve any culture and society in any country.

Keywords: Muslim Spain, Libraries, Knowledge, Literature

شجع أمراء وخلفاء أمية الثقافة والأدب وأحتضنوا الشعراء والكتاب وعنوا بالتعليم والثقافة ونشر العلم لذلك بنى الأمويون في الأندلس بالمكتبات حيث جلبوا إليها أمهات الكتب من مختلف الأقطار الإسلامية ولعل هذا نابع من إدراكهم أنه بدون الكتب ليس هناك علم إلا بطريقة الحفظ وقد قال أحمد ضيف في هذا الاطار:

"وكان في كل مدينة من مدن اسبانيا مدرسة كبيرة بل كانت القرى تحتوي على مدارس لتعليم القراءة والكتابة، على حين أن أهل أوروبا كانوا من العامة الذين لا يقراؤن ولا يكتبون."(1)

وقد عنوا عناية عظيمة بجمع الكتب في كل علم وفن، فقد كان في اسبانيا ستون مكتبة عامة أنشأها الخلفاء الأمويون و غير هم وأشهرها مكتبة "الحكم المستنصر":

"وأنشأ الأندلسيون في كل ناحية المدارس و خزائن الكتب وأقاموا في

---

*أستاذ في الجامعة النساء (مولتان) عميد كلية الفنون والحضارة

العواصم الجامعات التي كتن وحدها مواطن العلم في أوروبا زمنا طويلا،
ومما أعان على الاستكثار من الكتب ماكانت
تصدره معامل شاطبة من الورق، وبهذه الطرق الجديدة فاض النور على الرجال والنساء وعلى المواقين والمخالفين، حتى أصبحت قرطبة مدة ثلاثة قرون أكثر مدن العالم القديم نورا، وكانت حضرة ملوكها، وقصور خلفائها بكثرة عنايتهم بالعلم وحرصهم على استجلاب العلماء أليها من كل فج وصوب أشبه بمجامع علمية وكانت قاعات خزائن مكتبهم كأنها دور محكمة فيها معامل كبيرة خصت بالناسخين والمجلدين والمذهبين والنقاش، ومن خزائنهم ماكان جرائد أسمائها تستغرق عشرات من المجلدات"(2)

وليست هناك في المكتبات كتب مخصصة بل كانت تحتوى على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة و في الطب والكيمياء والموسيقى، وفي أصول الدين، ككتب التوحيد والفقه والحديث والتفسير وفي الفنون والأدب، كالبلاغة والتاريخ والرحلات والخطب و دواوين الشعراء المختلفة ومعجم اللغة، كان ذلك كله مجموعا جمعا منظما في مكتبة الحكم الذي حكم من سنة 350ه إلى 366ه، وكل غرفته من غرفها تحتوي على علم أو فن من الفنون، وقد كانت الكتب الموجودة في الأندلس من مصدر إسلامي وبجانبها نجد كتبا أخرى ألفها علماء أمم أخرى سواء في ظل المجتمع الإسلامي أو خارجه وقبله، لسبب هذا دخلت الأندلس حركة الترجمة وذلك لترجمة الكتب التي كتبت بلغة غير اللغة العربية.

وفي الحقيقة مثلت التي وقع جلبها من العالم الإسلامي تيارا ناميا طوال مدة البحث لأن الكتب التي جلبها الطلاب والعلماء الأندلسيون من رحلاتهم إلى العالم الإسلامي قد ساهمت كثيرا في اثراء الثقافة ويكفي أن نذكر على سبيل الذكر بعض الاسماء التي ساهمت في نمو الثقافة بجلبهم العديد من الكتب مثل "أبى محمد بن مسلم بن قتيبة" وبعض كتب

"عمرو بن بحر الجاحظ" ورواية (3)

وكان الأندلسيون يتحرون الجديد الأصيل من المؤلفات التي لم تصل بلا دهم وما يثير أهتمامهم ويثري اتجاهاتهم العلمية. في انفرد به "أبو عبدالرحمن بقي بن مخلد" ولم يدخله سواه مصنف "وكتاب" الفقه الكبير "لمحمد بن أدريس الشافعي" بكامله، وكتاب "التاريخ" لخليفة بن خياط "وكتابه" في الطبقات" و "أباجعفر أحمد بن محمد النحاس" فروى عن تأليفه في إعراب القرآن و في المعاني والناسخ والمنسوخ وغير ذلك، وهو أول من أدخل هذه الكتب الأندلس روايته. (4)

وفي عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر دخلت الكتب للجميع العلوم من المشرق وشارك الرحالة الأندلسيون من علماء وطلاب مشاركة فعالة في نقل مايظهر من كتب في العالم الإسلامي إلى الأندلس، خصوصا مؤلفات شيوخهم في العالم الإسلامي وما حصلوا على حق روايته وجوزوه، وهي كتب روى الطلاب معظمها عن مؤلفيها، فتكون بذلك أكثر ضبطا ودقة وأرفع منزلة وأوسع انتشارا في الأندلس. (5)

المكتبات الخاصة والعامة:

وقدعرف التعليم في بداية العهد الإسلامي الذي ابتدأ بمرحلة التعليم الإبتدائي ولكن مع بلوغ الأطفال القدرة على التمييزو الادراك إنتقلوا لتقلي العلم من علماء كبار وفي الواقع فنحن لا نعرف مواد الدراسة ومناهجها على وجه الدقة ولكن يبدو انها تحوي القراء ة والكتابة والقرآن وتعليم مبادئ الإسلام وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن للعلم صيغة دينية أساسا لسبب هذا كانت المكتبات توجد حول المسجد(6). والحقيقة أن وجود المكتبات بجانب أوبقرب المساجد له فوائد منها سهولة وصول الأولاد إليها بتوسط مساجد المدن والأرباض الإسلامية، كما يمكن للمؤدبين الذين بتواجدون في المساجد للصلاة وممارسة العلم من الوصول إليها بنفس السهولة.

قدمت هذه المكاتب "المؤسسات" خدمات تعليمية للأولاد مجانا. تكفلت الحكومة بالإنفاق على إنشائها وصيانتها وأجراء المرتبات القائمين بالتأديب فيها، وهي

صورة حضارية متقدمة تعبر عن المستوى الذي المجتمع في بنائه الحضاري والحكم المستنصر استعمل لفظ المؤدبين عوض المكتبين أو معلمين للأشخاص الذين وصل إليهم الحكم القيام بتعليم الأولاد الفقراء رجالا على مستوى من العلم يوازي علم مؤدبي أولاد المؤسرين.

حدد المستنصر الهدف والغاية من هذه المكاتب للمؤدبين، فجعل من مهامهم الأساسية تعليم الأولاد القرآن الكريم وشدهم إلى غاية أسمى من الأجر المادي الذي يتقاضونه وهي ابتغاء وجه الله العظيم في اجتهاد هم ونصهم. اضافة إلى هذه المكاتب الحكومية قام أفراد المجتمع بانشاء مكاتب أهلية الي انتشرت خاصة في قرطبة بالدرجة الأولى غير أن الغالب هذه المكاتب الأهلية كانت تقام في بيوت المعلمين أجور إلى المعلمين مقابل تعليمهم لأولاد هم في حيٰن أن مكاتب الحكومية كانت تقام حول المساجد.(7)

هذا يعني أن المكاتب الأهلية هي أيضا أماكن يعلم فيها الأولاد، ولم يكن للمكاتب الحكومية دورا مباشرا في انجاد ها بل كانت المكاتب الأهلية أكثر انتشارا مها فهي تمثل مرحلة هامة لتوجيه سياسة التعليم وتعليم الأولاد وأعداد هم لمراحل العلم القادمة وللعمل والبحث العلما. ومكان الكاتب الأهلية غالبا بيت المعلم (المكتب) كان يأخذ من بيته غرفة ليستقبل فيها الأولاد مثلا محمد بن حزم، كان هو واخته وأبوه تجمعهم كلهم في التعليم دار وحدة.(8)

وعندما انتشر العلم، أصبحت تجارة الكتب تجارة كبيرة في الأندلس، بعضهم تاجر بها فنقلها من البلد الذي تتوفر فيها إلى بلد يفتقر إليها. وهذا الصنف من التجار لم تحل التجارة بينهم وبين العلم كتلقيا وبذلا، إذ عرف عن بعضهم أن لم نقل معظمهم الأهتمام بالعلم والحرص على طلبه، فكان يتاجر ويطلب العلم في آن واحد ولعل بعض أولئيک وجد في تجارة الكتب أو غيرها من البضائع خير وسيلة لتوفير مايحتاجه من مؤنة في رحلته الطويلة

وأن تجارته بالكتاب مساهمة كبرى في الحركة العلمية.(9)

وكان في الأندلس كثيرا من المكاتب محبي الكتب أكثر منها وكان في المكتبات مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة، وبعض الخاصة يولعون بالكتب ويجعلون دورهم معاهد لدراسته ما تحتوى عليه يقال إن أحد السلاطين دعا طبيبا أندلسيا ليزوره فأجابه، أن ذلك لا يمكن لأن كتبه تحتاج أربعمائة جملا لنحملها وهو لا يستغنى عنها كلها.

وكان الحكم المستنصر محبا ومعجبا الكتب وكان حريصا على أقتناء دواوينها، حيث يبعث فيها إلى الأقطار ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأئمان والواقع أن الحركة الأدبية والثقافية لم تصل إلى ذروتها إلى في عصره، وكان أكثر الخلفاء حبا للكتب حتى قيل:

"إنه جمع من الكتب مالايحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد، وأنهم نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها وكان عالما نبيها، صافي السيرة سمع من "قاسم بن أصبغ" و "محمد عبدالسلام الخشني " و "زكرياء بن خطاب" وأكثر عنه وكان يستجلب المصنفات من أقاليم والنواحي، باذلا ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه وكان ذا غرام بها، قد أثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودقق نظره وجمت استفادته."

ويذكر ابن بشكوان أنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق، مهما كان موضوع هذا الكتاب، وكان يعتنى بكتابة نسبة المؤلف ومولده وتاريخ وفاته، ولذلك كان في معرفة برجال العلم والأدب والأخبار والأنساب أحوزيا نسيج وحده، وكان له ثقة فيما ينقله.(10)

وكان محبا للعلم وللعلماء، مكر مالهم، فكان يبعث في إستقدامهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مشواهم ويرفع منازلهم عنده، ومن بين العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى قرطبة "أبو على اسماعيل القالى اللغوي" صاحب الكتاب "الآمالى" واتفق أن وصل في أيام

عبدالرحمن الناصر (سنة 330ه). فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله عند نزوله بالأندلس فسار معه نحوقرطبة موكب جليل و أختص أبو على القالى بالحكم المستنصر، وبإسمه طرز القالى كتاب الأمالى.(11)

وبعث الحكم في طلب كتاب "الأغاني" إلى مصنفه "أبى الفرج الإصفهانى" ودفع إليه فيه ألف دينار، فأرسل إليه أبوالفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد، وكذلك ألف كتابا في أنساب قومه بنى أمية. وقد فعل المستنصر ذلك أيضامع "يضامع" محمد بن يوسف الوراق" الذي ألف" مسالك افريقية وممالكها "ومع" قاسم بن شعبان وكان يعين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابه مؤلفاتهم، كما كان لا يترددفي مساعد تهم من الناحية العلمية بإعانتهم لما يحتاجون إليه من مصادر أرسل إلى الكاتب المصري "أبى سعيد عبدالرحمن بن يونس".(12)

صاحب الكتاب "تاريخ مصر والمغرب" كتابا استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه يختص بالأندلس وأعتنى الحكم بهذه الكتب عناية فائقة، فجمع في قصره الحذاق في النسخ، والمهرة في الضبط، المجيدين لفن تجليد الكتب، فاجتمعت له في قصره بقرطبة، خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده وكان عدد فهارس عناوين الكتب فقط أربعا وأربعين فهرسة، وتشمل كل فهرسة على عشرين ورقة كذلك أهتمم الحكم بكتب الطب والعقاقير والتنجيم، فمنذ أن أهدى الامبرا طور البيز نطى أباه كتاب "ديسقورديدس" في النباتات والعقاقير، وكتاب "هرويس" وقد اهتم بترحمة هذه الكتب.(13)

وألف الأندلسيون في شتى العلوم، وأمتازت مؤلفات العديد منهم بالغزارة والأصالة والتأليف. فألفوا في علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وفروعه و في القضاء في اللغة وعلومها والمعاجم والفهرسة والتاريخ والتراجم والجغرافية، كما ألفوا في الطب والحساب والهندسة والفلك والموسيقى وفي أصول العلم وفضله و آداب المعلمين وفي الزهد.

كما ألفت فئات المجتمع من اليهود والنصارى علومهم المختلفة في ظل المجتمع الإسلامي الذي وفر فرص المعرفة والعلم ولم يحرم أحد من العلم والإنتاج، وغاية القول أن

الأندلسيين لم يتر كوا حقلا من حقول المعرفة إلا طرقوه. فدرسوه وألفو فيه الكتب الحسان، التي أرتقى مستوى بعضها إلى غاية الأصالة والابداع والجودة والاتقان والسبق. وجاء هذا تدريجيا بعد نمو مستمر في بناء الحياة العلمية.(14)

إن فخامة التأليف وتنوعه في الأندلس له ما يبرره، فمجتمع كالأندلس كله نساؤه ورجاله جلهم، يقرؤون ويهتمون بالعلم ويستمتعون بقراءته ودراسته لذلك نجد الآلاف من العلماء والمتخصصين في كل ميدان يؤلفون ويكتبون بوفرة غزيرة وأصالة باهرة وتمكنا نادرة.

فكانت الأندلس قبلة العلماء والمتعلمين، ليس من العالم الإسلامي فقط ولكن من خارجه أيضا. وغدا العلم والكتاب مصدر فخر وميدان ترتفع به مكانة الانسان ويعرف موضعه. وهذا يدل على إنتشار العلم والثقافة في صفوف المجتمع الأندلسي الذي عرف ب كثرة علمائة. فأية مدينة لو أحصى علماؤها في عصر واحد مهما كانت صغيرة لكان عندهم قائمة طويلة ونظرة فيما لدينا من كتب وتراجم تطلعنا على هذا ذخرت قرطبة بالعلماء في عصر الخلافة.

ومن الأمور التي تدل على وفرة العلماء بقرطبة وقتئذ ماذكر أن الحكم المستنصر أمر ونادى في أزقة قرطبة الآيتهمم رجل لايحمل المدونة حفظا وفقها فتهمم فيها ثلاثة مائة رجل ونيف وقال إنه كان في قرطبة ثلاثة آلاف مقلس وكان لا يتعلس عندهم في ذلك الزمان الأمن صلح للفتيا.(15)ولم تكن قرطبة وحدها بذلك المستوى الرفيع في العلم والثقافة بل توفرو لو بشكل أقل خاصة قبل سقوط الخلافة في سائر أنحاء يقول يا قوت الحموي:

"قلما أن ترى من أهلهامن لا يقول شعراء ولا يعاني الأدب ولو مررت بالفلاح فناديته وسألته عن الشعر قرض من ساعته مما اقترجت عليه وأي معنى طلبت منه."(16)

وقال رانهارت دوزي:

"إنه يمكن القول أن كل فرد في الأندلس تقريبا كان يحسن القراءة والكتابة بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة معرفة أولية في أوروبا إلا طبقة القسس."(17)

ومـمـا شجع على التأليف هي الرغبة الأصلية لدى العالم في نشر علمه وأفادة الناس منه الذين كانوا في ذات الوقت خير مشجع للعلماء في إتجاههم. وكانت الحكومة الأندلسية هـي الأخـرى عـنـصـر تشـجيع العلم ورعاية للمؤلفين واتخذ ذلك التشجيع وتلك الرعاية اشـكـالا متـعـددـة، فالحكم المستنصر كان يقترح على العلماء أن يؤلفوا، وقدم عديد مهم ما جاء ت به افكار هم إلى الحكم الذي اغدق على الجميع، سواء من الأندلسيين أو من اتصل به مـن الـعلماء من خارج الأندلس من كبير التقدير والاعتزاز والعطاء ماغذى مسيرة العلماء في اعمال الفكر والانطلاق الحرفي فيرحاب العلم الواسعة الممتعة.(18)

وكـانـت تـلـك الـرعـاية أصلية ولغاية واحدة لا غيرها هي تهيئة المزيد من الأجواء الـمناسبة للحركة العلمية، التي أسسها المجتمع الإسلامي لتزيد في ابداعها وعطائها. وليقدم أولـئـك الـعـلـمـاء الـمجتمعهم نتاجا طيبا وزادا نافعا يغذى العقول ويهذب النفوس أخذا بيد الـمـجتـمـع نـحو العلا والرقي القائم على دعائم و أركان ثابة متينة دافعة ومما وفر عدد نسخ الـكتـاب الـواحد إزدهار صناعة الوراقة في الأندلس، حيث تولى الوارقون ومنهم من عمل في مكتبات خاصة أوعامة أوعند الدولة، نسخ ماظهر من مؤلوفات نسيج عدة حسب اقبال الناس عـليهـا. وكـل الـذين اشتغلوا بالعلم من علماء وطلبة كانوا ينسخون الكتب.(19)وكان شأن كل هذا أن أثرى المكتبات وجعل الكتب الأندلسية أو غيرها، سهلة التنقل ميسورة الحصل.

ومـا تـحت ذكره هنا أن الكتب التي دخلت الأندلس من غير العالم الإسلامي كانت يشـكـل مبـاشـر قليلة وتلك الكتب حملت إلى الأندلس عن طريق التجار والطلاب وكانت سـفـارات تلك الأمم قرطبة أهم باب على ما يبدو دخلت الكتب منه إلى الأندلس. وإذ وجد عـد مـن حـكـام الأفـرنـج أن خيـر مـا يتقرب به إلى قرطبة هو الكتاب عندها عرفوا المستوى الحضاري الذي بلغته وحب خلفائها للكتاب والعلم.

ويـوم قـدمـت سـفـارة امبرا طور الدولة البيزنطية إلى قرطبة سنة 336ه/ 948م، لم

يـجـد قسـطـنـطين السابع (ملك البيزنطي) ما يتقرب به إلى خليفة الناصر لدين الله خيرا من أهـدائه بعض الكتاب.(20)إلا إذا الـكتـاب الـذي حطيت به قرطبة اصابة تلف كبير أو توزع غيـر عـادي عـلـى أثر الفتنة التي أدت إلى سقوط الخلافة توزع لم يصب الكتب فقط بل حتى العلماء أيضا.

وتـعتبـر مـكتبـات القصور مكتبات عامة لأنها كانت مفتوحة لكبار العلماء والأدباء، خـاصة اضـافة إلـى رجـال الـحـكـومة ومـن يتصل بهم، وهي بهذا دون مكتبات المساجد في عـمـوميتهـا، وأضـخـم مـكتبة كـانـت فـي قـرطبة وقد رعاها أمراء الأندلس وخلفائهم ويقول قلشقندي:

"إن أعـظـم خـزائـن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن منها خزانة خلفاء بنى أمية بالأندلس."(21)

وحتـى قيـل إنهـا كـانـت أربـعـمائة ألف مجلد أو ستمائة ألف مجلد، وفق ماورد في رواية أخـرى ويـظهـر الـفـرق واضـحـا إذا قـورن هذا العدد بما تحويه المكتبات المعاصر في أوروبـا، وقـد لاقـت مـكتبة الـخـلافة كـل الـعـناية على يد الحكم المستنصر فقد جمع بداره الـحـذاق فـي صـنـاعة الـنسـخ، والـمهـرة في الضبط والاجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله.(22)

انتـفع العلماء والأدباء بمكتبات الحكام التي كانت مفتوحة لهم بشكل أوسع وربما كـان فـي الأنـدلـس نـوع مـن الـمـكتبـات العامة غير التي في المساجد وقصور الحكم. وهي مـكتبـات الـحـدائق التي امتازت بها الأندلس زمن الأمويين والدولة العامرية، وإذا صح الخبر فهـي مـظهـر من مظاهر حب الأندلسين للكتاب وشغفهم بقراءته وتقدير هم الاهمية فوجدوا فـي انشاء المكتبات في المتنزهات وسيلة نافعة من وسائل ايصال المعرفة إلى المطالع في جو المنتزهات الجميل.

لـذلك قيـل إن قرطبة هي مدينة الكتب ومدينة العمران ومدينة الثقافة لأنها عرفت بـكثـرة مـطـالـعة طـلابها وحبهم للكتب. بل أن الرغبة في الحصول على الكتب قد تجاوزت

الرغبة في المطالعة، ذلك أن بعض أهل الأندلس كانوا يبذلون أموالا طائلة لإقتناء الكتب لا لقراء تها وانما لتزيين مكاتب البيت وتجميلها و أيضا ليفاخروا بها بعضهم. فالسعى على الحصول على الكتاب أصبح مجال فخر عند الأندلسيين ولعمري لسبب ذلک ليس بغريب على مجتمع ساده العلم وحفل أهله بالكتاب.

قال حضرمي:أقمت بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب وكان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع، وهو بخط فصيح، وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد ثمنه، فيرجع إلى منادى بالزيادة على أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا أرنى من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوى. فأرانى شخصا على لباس رئاسة، فدنوت منه، وقلت له، أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لک غرض في هذا الكتاب تركته لک، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده، فقال لي: لست بفقيه ولا أدرى مافيه ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت منها لا تجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد، استحسنه ولم ابال بما أزيد فيه، والحمد الله على ماأنعم من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي: فأحرجنى وحملنى على أن قلت له "نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلک يعطى الجوز من ليس له أسنان" وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندى قليلا وتحول قلة مابيدى بينى وبينه.(23)

يعني من المميزات الباهرة وصفات الطيبة الأجلال للعلماء وحب الكتب والمطالعة من خاصية الأندلسين ولقد كان شعب الأندلس شعبا يقبل على العلم للعلم ذاته، ومن ثم كان علماؤ هم متقنين لفون علمهم، لأنهم يسعون إليها مختارين غير مدفوعين، بهدف غير التعليم، وكان الرجل ينفق كل ما عنده من مال حتى يتعلم، ومتى عرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والأجلال ويشير الناس إليه بالبنان، وينبه قدره ويعلو ذكره بين الخاصة والعامة، ومن الطريف أن العالم كان موضعا للتكريم من جيرانه كما كان يراعى جانبه إذا ماراد ابتياع سلعة أو شراء شئي من أغراض الحياة.(24)

وعى أنه قد وجدت عوامل التشجيع على تحصيل العلم التي منها الراتب الجارى

الذي يأخذه طالب العلم كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر يستعين به على ضروريات الحياة، وهو نظام كان معمولا بيه جميع أندية العلم ومدارسه في كل البلدان الإسلامية تقريبا، ولكن المقرى يتحرز في هذه النقطة ويؤكد القول على أن الأندلسيين كانوا يقبلون على التعلم من أجل التعلم ذاته وليس طلبا للمرتب الجاري الذي يكون عادة صفيرا ضئيلا، وآبه ذلك أن بعضهم كان يترك عمله الذي يتقاضى منه راتبا يكفيه لأن يحيا حياة رغدة.

وأهم العلوم التي يقبل عليها الأندلسيون هي الفقه والحديث وعلم الأصول وكل ما يتعلق بها. وقالوا إن المكتبات كانت موجود في العصر الأمويين لم نجد قبلهم ولا بعدهم. وكان ابن حزم يقراء في مكتبة الحكم المستنصر ويستنير من مواردها العلمية العذبة، وقد حدث ماانتجه الفكر العربي الإسلامي، وخاصة في الفترة الأخيرة مع حكومة الحاجب المنصور، وهو أديبا شاعرا محبا للعلوم، مؤثر للأدب، وقد كان يبالغ في اكرام من يقبل عليه من العلماء والأدباء والشعراء.(25)

وقد ألف له "أبو العلاء صاعد" كتابا "غريبة في السياسة والأدب".(26) وكان للمنصور مجلس في كل اسبوع يجتمع فيه أهل العلم والمناظرة بحضرته أثناء مقامه قرطبة، لأن غزواته المتصلة إلى بلاد الروم كانت تشغل معظم وقته، وكان المنصور نفسه أشد الناس في رفضا لكل من عنده شيئى من الفلسفة والجدل والاعتقاد، والتكلم في شئي من قضايا النجوم وأدلتها، والاستخفاف بشئي من أمور الشريعة، وقد أحرق ماكان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضرأكبر العلماء منهم "الأصيل" وابن زكوان والزبيدي وغير هم واستولى على حرقها جمعيا بيده.(27)

وبعد هذا خرست السن جميعهم لذلك وبصورة عامة الأمراء والخلفاء وعامة الناس كلهم يحبوا الكتب والعلماء والمكاتب أيضا وهذه المكاتب بقيت خفوظة في أيام الفتن التي قامت في قرطبة من سنة 399ه إلى 403ه، فقد قال في ذلك ابن خلدون:

"ولم تنزل هذه الكتب إلى أن بيع أكثرها البربر وأمر بأخراجها الحاجبوا ضع من موالى المنصور بن عامر ونهب ما بقي منها عند دخول البربر

واقتحامهم اياها.''(28)

إلا إذا الكتاب الذي حطيت به قرطبة اصابة تلف كبير أو توزع غير عادي على أثر الفتنة التي أدت إلى سقوط الخلافة توزع لم يصب الكتب فقط بل حتى العلماء أيضا.

عني الأندلسيون بالكتاب غاية العناية، فإزدهرت عندهم صناعة الوراقة التي تعني بنسخ الكتاب وتجليده وتصحيحه بالضبط والرواية وغيرها. جاء هذا الإزدهار بعد أن كثر التأليف العلمي وحرص على تناقلها في الآفاق لتعمم فائدتها العلمية.(29) فتوفر مواد الكتابة ومستلزماتها ورغبة الناس الكبيرة في الحصول على نسخ ما يؤلف ساعد على ذلك الإزدهار ويسر للطالب الحصول على الكتاب بأيسر جهد وأحمل شكل واتقين محتوى. ومن الصناعات التي أنتشرت في قرطبة صناعة الكاغذ، وكذلك لإستخدامه فيي الكتابة ويرجع إنتشار تلك الصناعة إلى أهمية قرطبة العلمية وكثره العلماء الوافدين والراحلين منها وقد تعرض الكاغذون لمراقبة المحتسب.

ولقد انتقلت صناعة الورق أوالكاغذ من الشرق إلى الأندلس مذللقرن الرابع الهجري وارتبط بتلك الصناعة صناعة صناعة التسفير أو التجليد التي ازدهرت في قرطبة هتى تحولت من محرد كسوة الكتاب إلى زخرفتهى وتزويقه وتلوينه وتذهيه، وقد أهتم المسلمون في المغرب والأندلس بهذه الصناعة أهتماما كبيرا حتى بلغت الكمال ووضحت الكتب التي تصف هذه الصنعة وتنحدث عنها مثل كتاب التيسير في صناعة التسفير. وقد قسم الكتاب إلى عشرين بابا، كلها في أسلوب التسفير.

فالباب الأولى في الأداة، وباب الثاني الأخرية وثالث التخريم و التفقيه والتسويه والحبك والحكمة والتبطين والبشر والتركيب الجلد، والعمل الاسفار البوالي وطبغ البقم ونقش ونقش الضرس والأمثلة العمل في الازرة الفراء وفي أقرية المصاحف والاقرية المبنية والمعل في الجوامع وفي النكت وفي العيوب. ولقد كانت منذ القرن الثالث والرابع الهجري منتدى العلماء وبالتالي عظمت فيها نسخ الكتب وصناعة التسفير ولقد توافرت المواد الأولية المستخدمة تلك الصناعة من جلد وماء وذهب وألوان وخيوط وغير ذلك مما ورد

في أصول هذه الصناعة.(30)

وعمل كل ذلك على اغناء المكتبات التي حفل بها الأندلسيون. وأهل الأندلس أخذق الناس في الوراقة لذلك إشتهرت الأندلس بمصانع الورق وتميزت بهذا الإنتاج بعض المدن مثل غرناطة وبلنسية وطليطلة وقد أصبحت شهرة واسعة في صناعة الورق الجيد.(31) حتى متدحه الادريسي بقوله:

"ويعمل بها من الكاغذ ما لا يوحد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغرب، فقد كانت شاطبة مدينة تجارية نشطة عرفت بنشاطها الواسع."(32)

إن نشاط التأليف ورغبة الناس الكبيرة في أقتناء الكتب وتوفر مادة الكتابة (الورق) وانتشار القراءة والكتابة وارتفاع المستوى الثقافي للأندلسيين، عمل على زيادة الاهتمام بالكتاب نسخا وتجليدا و ضبطا وما إلى ذلك، وقد ربط ابن خلدون بين التقدم الحجاري الذي شهده العالم الإسلامي وبين التقدم الحضاري العناية الفائقة بالكتاب فقال:

"كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحا بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ماوقع من فخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب ذلك لهذا العهد بازدهار الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في المللة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندس إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونطاق اسواق ذلك لديها."(33)

إن نسخ الكتاب في الأندلس لم يقتصر على الوراقين الذين كانت سنعتهم الوراقة بل تعداد إلى كل ذوي الاهتمام العلمي. ومما يتصل بالنسخ والخط، فكان للأندلسيين خط متميز أثر على الخط في عدوة المغرب وافريقية كما قيل:

"كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون إمرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا من ناحية من نوحيها، فكيف بجميع جهاتها."(34)

وقد تميز النسخ في الأندلس في عصور الإزدهار بالضطب وحسن الخط، ولهذا نجد الدواوين المنسخة لذلك العهد في اقطار هم على غاية من الاتقان والأحكام والصحة. ومنها لهذا العهد بأيدى الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية في ذلك، وصارت الكتب إذا نسخت فلا فائدة تحصيل لمتصفحا منها إلا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتفسير الاشكال الخطية عن الجودة، حتى لا تكاد تقراء إلا بعد العسر. ويفيد النص المتقدم في دراسة وتحديد خطوط المخطوطات الأندلسية التي وصلتنا. وكان من شأن التجليد أن يحفظ الكتاب ويصونه من التلف لمدة أكبر، ويضيفي عليه جمالا وسهولة في الاستعمال والنقل، لذلك فنال تجليد الكتاب عناية خاصة من أهل الأندلس. وكانت "مالقة" بالأندلس أكثر المدن براعة واتقانا في صناعة الجلود عامة وتجليد الكتب نفيسا على وجه الخصوص. وقد تطورت الأندلس تطورا لا نظير له في تجليد الكتب في العصور الوسطى، وكانت مكتبة القصر في قرطبة تضهم أمهر المجلدين في اسبانيا، يعملون بإستمرار في القصر معهم مجلدون آخرون من صقلية بغداد ورسامون ليزينوا الكتب التي كان ينسخها أمهر الناسخين.

وكانت هذه الكتب المنسوخة تقدم إلى جماعة من العلماء لتصحيحا تد قيقها كذلك كان شأن الكتب الأخر التي ينسخها الوراقون النساء والرجالا. فالطالب بعد حصوله على نسخة من الكتاب يحرص على قراء تها على العالم سواء أكان مؤلفه أوله حق روايتها فتكون النسحة بذلك مظبوطة القراء ة. وكان الوارقون على مستوى جيد من العلم والثقافة.

الحواشي

1. أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس: ص11-12
2. كرد علي، الإسلام والحضارة: 261/1-261، أحمد خان، إسلامي أندلس مين كتب خانه أور شائقين كتب، اسلام آباد1974ء، ص85-86
3. الفرضي، تاريخ العلماء:61/1

4. الفرضي، م. ن:92,86/1

5. الفرضي،م.ن: 35,32/1

6. ابن العذاري، البيان المغرب: 240/2

7. ابن الأبار، التكملة: 385/1

8. ابن الأبار، م.ن:385/1

9. الفرضي،م.ن:92,76/1

10. المقري، نفح الطيب: 371/1

11. المقرى، م.ن: 371/1، أحمد خان، اسلامي اندلس كتب خانه،ص197

12. ابن خلدون، العير: 146/4

13. انظر: المقرى، م.ن: 8/2، ابن سعيد، المغرب: 92/1

14. الفرضي، م.ن: 92/1

15. عبدالواحد المراكشي، المعجب: ص372

16. ياقوت، معجم البلدان: 312/3

17. انظر: Cambridge Medivel History, P.434، رانهارت دوزي، تاريخ مسلمي إسبانيا: 184/2

18. رانهارت دوزي، م.ن: 184/2

19. خوليان ريبرا، المكتبات في اسبانيا الإسلامية، مقال في مجلة معهد المخطوطات، ج4، جزء 1-2، بيروت 1965ء، ص134، وبعدها

20. خوليان ريبرا، المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا، مترجم جمال محمد، القاهرة1958ء م، ج1،ص92

21. القلقشندى، صبح الأعشى: 51/3

22. انظر: ابن خلدون، م.ن: 317/4، المقرى، م.ن: 341/3

23. المقري، م.ن: 11,8/2

24. المقري، م.ن: 205/1

25. عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص87

26. عبدالعزيز عتيق، م.ن: ص88

27. المقري، م.ن: 71/2

28. المقري،م.ن: 242/4

29. A. Alhajji, Andlusian Diplomatic Relations, P.134

* مصطلحات الخاصة لصناعة الورق والتجليد.

30. انظر: ابن خلدون، العير: 961/3, A, Alhajji, Andlusian, ibid, p.135-136

31. خوليان ريبرا، تاريخ اسبانيا: 85/1

32. ابن خلدون، م.ن: 356/3

33. ابن خلدون، م.ن: 356/3

34. عبدالواحد المراكشي، م.ن، ص383